عبد الله جفري

# عن الشعراء سألوني ..

■ أتنتخب فرحى .. فى مناسبات الحزن ؟!

● ● إنى أستأذن حينا أتأهب ، فأطرح هذا السؤال :

ـ هل أصبح إدراك الإنسان للمفاهيم ، وللفكر ، وللفن ، وللارتفاء الحسى .. إدراكا متكئا .. مصدوما بالمتغيرات المسلطة على رؤية الإنسان ووعيه وشجونه ؟!

ما هو الفارق اليوم بين داخل الساحة وخارجها ؟!

إنى أتلفت فى كل الجهات .. إنسانا متسميا إلى هذا العصر بشاكله .. بمتناقضاته .. بقشوره .. بأنينه وضحكاته . اليوم يبدو الإنسان محكوما بالتلفت .. لأنه مرهون بالأصوات الفاجئة من خارجه ومن أعماقه أيضا ، ومناخات بعد ذلك وراء الفجائية ذاتها !

وسأحاول أن أجيب على التساؤل المطروح .. بأن أذن لنفس بالدخول إلى هذه الساحة !

وسأجيب على سؤال أفترضه منبثقا منكم عن : المقصود بالساحة . فأقول :

● إن كل قضية تهمنا ، أو تتطور فيها هى ساحة يتبارز وسطها نقيضان يتولدان من احتياجاتنا ، ومن مفاهيمنا . وكل رغبة تتبلور فى داخلنا هى ساحة ستخلو بعد قليل بقتل تلك الرغبة ، أو قتلها لنا !!

وكل هدف ينضح من طموحنا هو ساحة .. نحن فى الغالب لا نملك حدودها ، ولكننا نركض فى فراغها حتى الإعياء ، وحتى الموت !

نحن رهائن « ساحة » تزف نوقها العمر ، وتقطر الشجن .. تتباغض وتتحساب .. تحارب وتموت .. تقتل وتنتصر ، وتضيع . لكن ثمن هذه الصراعات ، وهذه الأهداف ، وهذه الرغائب أن تكون لها جميعا « قيم » ومضامين لحياة كريمة ، ومفاهيم لتشييد مجتمع راق وحضارى !

حينما يتكئ الإدراك يصبح الحظ أعمى !..

وهذا قول أستلهمه من التربسات الموروثة من أجيال مضت .. رغم اقتناعى التام أن الجهد لا يخضع للحظ ، وأن الاجتهاد لا يتحول حظا ، وإنما هو متأرجح بين الخطأ والصواب ..

● الشاعر السورى نزار قبانى

فالإنسان إذن ـ إما مخطىء وإما مصيب كما تقول القاعدة القديمة ، ولكن الإنسان لن يكون محظوظا ، أو سيىء الحظ !

بعد ذلك .. فمن الصعب أن نسلم وعينا لانكفاء الإدراك .. فرغم أن العالم يضم أمما قطعت شوطا باهراً وبعيداً على درب الحضارة .. فإنها أمم ضعيفة أمام متغيراتها المتصادمة .. لكنها مضطربة بفعل انكفاء إدراكها لمصالح الإنسان المشتركة .. لأنها تنحصر فى مصالحها الخاصة ، أو فى همومها الكثيفة !

لهذه الأسباب تنقوض حضارات ، وتنفجر حضارات ..

● إن « شبنجلر » يقول : إن الانسان الملىء بالسجون .. لا بد أن يعترف أن ما يتلىء به ليست سجونه وإنما هى سجون الآخرين التى بعانى هو منها !!

فأنت تبكى إذا فقدت شيئا يخصك ، ولكنك تبكى أكثر إذا فقدت إنسانا بلغت غلاوته فى نفسك العمق ، أو إذا هجرك من أحببت !

وأنت تتنازل لغيرك عن أشياء كثيرة ، ولكنك لن تتنازل من أجل نفسك عن أشياء تضرك لأنك تعتقد أنك تزاحم بها الآخرين .. فالآخرون هم سجونك وهمومك ودموعك وابتساماتك ، والشاعر يفعل ذلك أيضا بدون أن يدرى . فالخنساء تنازلت عن شبابها وأنوثتها من أجل أخيها « صخر » ،

● الروائى الأمريكى أرنست هيمنجواى

أو بسبب حزنها عليه ، ولكنها لم تتنازل عن حزنها ولوعتها على « صخر » من أجل أنوثتها وشبابها !

وهذه النظرة قد تبدو متأرجحة إذا انطلق جدل لمناقشتها ، وإذا تركز الجدل حول رفض التنازل عن أشيائنا الحميمة أو الخاصة بنا .. باعتبار أن الإنسان أنانى ، ولكن أنانية الإنسان ليست فى الغالب إلا من أجل ما يريد وهو يريد لنفسه ، ولكن الذى يريده لنفسه يعطيه كل نفسه أو أغلى ما عنده من أجل سبب لا بد أن يكون مرتبطا بإنسان آخر !

● ● هنا .. أقترب من النقطة الأخرى التى تأملت جوانبها ، ولا بد أن تكون مرتبطة بما طرحته من شواهد وحوار . هذه النقطة .. هى محاض لانطباع تتكل فى محتوى الجيل الذى يشهد لنا وعلينا ، وهى رؤية محتدة .. لحصيلة عاطفة إنسانية غالبا ما تقبع فى غبار قبح ما نرغب ونشتهى ، وهى معاناة ذات حدين .. تقتل القاتل والقتيل ، ويبقى داخل الساحة لا أكثر من أنقاض حضارية ، وتهدمات نفسية غارسها اليوم وتمارسنا .. كانت مرحلة فى حياة الأجيال السابقة ، وأصبحت معاناة للجيل المعاصر !!

وسأستلهم دليلى من عاطفة الإنسان . وقبلما يتحدث الإنسان اليوم عن أصدق ما فى وجدانه . وسأستلهمه من وسائل التعبير عن هذه العاطفة ، وأسأل هنا :

● ما الذى تبقى من عاطفة الإنسان ؟!

الجواب : عندما أراد « همنجواى » أن ينتحر .. لم يقل للعالم : إننى انتحرت لهذا السبب .. لم يعط سببا . ولكنه قبل أن يمون كان يكتب رواية لم تكتمل وتركها عند سطور قال فيها : إذا كان ما تبقى من الحياة هو مزيد من قبح المصالح ومن عاهات الوجدان .. فلا بد أن يكون الموت إجابة رائعة على هذا السخف !

ولكنه قتل نفسه فى صمت ، وترك الضجيج لمن تحلقوا حول جثته ، ثم تاجروا بأسرار حياته ، أو بادعاء تلك الأسرار !

والانتحار ليس حلا . ولكنه نتيجة ..

كذلك .. فإن عواطف الناس لم تعد « وجدانا » ، ولكنها أصبحت لا أكثر من مضمون معكر مضطرب للوجدان ، واختلفت تلك المضامين ونلاحت ..

فالعاطفة بأشكالها العديدة الملونة بظروف وضغوط المعايشة .. هى دائمة التلفت .. مناقة وراء الفجائية ذاتها !!

● تورينى مثلا .. المؤرخ الذى لم يكن له دخل بالشعر قال هذه العبارة :

« فى شبابى أردت أن أتعلم الرسم . فكانت أولى محاولاتى أننى رسمت سماء زرقاء ، وغصن شجرة ، وطائرا يحلق فى المدى . وقبل عام واحد فقط أردت أن أعرب إلى الرسم ، فكانت آخر محاولاتى أننى رسمت مدفعا ، مشتعلة ، ومساحة حمراء تعنى اللهب ، وبوما فى داخله » !!

وقد أراد المؤرخ أن يقول : لقد تبدلت الحياة . إن المتغيرات هى حصيلة الرغائب المجنونة والمصالح القبيحة ، وهى تعبير عن عصر القلق والخوف والأمراض والمجاعة والاكتشافات الغامضة !!

ثم جاءت عبارة جديدة استوقفتنى ، وهى لشاعر عربى معاصر .. قذفها فى وجه أحد الصحفيين فقال :

● إننى متوتر وبحنون . لا تسألونى عن شعرى فما زلت مبدعا وفنانا .. رافضا ومرفوضا . وأكتب الشعر الجيد ولكنه ليس الشعر الوجدانى بل هو الشعر المناضل ، أو الشعر القبلة . إن هذا هو عصرى وعالمى !!

وتجعلنى هذه العبارة أنكفىء ولا أريد أتقلص ولا أتمدد .. تجعلنى أتوجع ولا أدرى قضيتى !

ذلك لأننى : أنتخب فرحى فى مناسبات الحزن ..

إنني أرشح طموحي لخدمة مصالحي..

إنني عاطفي ومتسلح.. بل إنني متوحش أرعرع شجوني وأدعها تتصادم!

لقد نال ذلك الشاعر ما استهجنته بنفسية الإنسان المتعب.. البدد في أصداء تلك الساحات.. فهل هناك داع للسؤال!!

وهل يصبح الآن من الضروري انتظار الإجابة؟!

وأي سؤال.. وأية إجابة؟!

إنني لا أحاور الفهم، ولا أترصد الإدراك.. إنني - فقط - أتنصت وتنهرني ملامح العالم!!.

لست شاعرا، ولكنني ولدت في دواعي الشعر!!

كان الشاعر «طربادورا» ينثر أشعاره في الطرقات على شعر حسناء فتغني شعره، كأنها تفوح زهرا!

وكان الشاعر يدخل مسابقات «البراعة» من أجل الارتفاع بقيمة الكلمة، فيأخذ جائزة أو جاهها.. فكأنه يحول الدنيا إلى نغم لا يضيع!

وليست هذه قيمة الشاعر.. بقدر ما هي تنويم للشاعر، ولكن المحتوى الوجداني كان هو القيمة.. فإذا وجدان الإنسان اليوم يفتقد محتواه!

إن العالم يبدو بلا مضمون وجداني.. العالم يتحول إلى سياسة، وصراع.. والشعر يحترق في هذا التحول، فلا بد أن يقترب الشاعر من آلام أمته، وعندما اندلعت حركة المقاومة الفلسطينية انبثق عنها شعراء.. منهم: درويش، والقاسم، وكانت لها ولادة أكبر من حجم معطياتها الشعرية أو الفنية، أو المضمون الوجداني، وعندما ازدادت دروب «محمود درويش» اضطرابا تحول إلى شيء عادي.. إلى شيء للممارسة كأنه قد تحدد كشيء سياسي، ولكنه كشاعر ربما كان مبدعا.. إنما هذا الإبداع قد توقف عند محتوى وجداني محدد!!

● الشاعر السوداني محمد الفيتوري

ومحمد الفيتوري - برغم شاعريته المبدعة - قد تلاشى انفعال الوجدان.. بعد أن كان مضمونا في أذهان وشجون الناس يوم غنى لأفريقيا، ثم تحول غناؤه سياسيا بألوان متعاقبة فتحدد، ثم توقف عند الصوفية، أو هو أغرق نفسه في محتوى وجداني محصور!!

وجاءت فترة حلت فيها الصحف والمجلات على «نزار قباني».. لأنه شاعر يدخل قدما ثم يخرجها ويجرب بالقدم الأخرى.. فهو يحاول أن يفتح طريقا يجتهد فوقه زمنا يعترف له غيره، ولكن هذا الزمن يبهت في الملامح التي يرسمها «نزار» لأنها ملامح متردة، أو لأن تأمله لتلك الملامح يعد رسمها.. لا أكثر من تلفت وتوتر!

وكل هؤلاء توقفوا عن إعطاء الجديد.. عن المضمون المفقود.. توقفوا عن ولادة رؤية جديدة لزمن مأمول، إنهم جديرون بالعذر ولكن المضمون الوجداني لكل جيل يتجاوز الأعذار.. فإما أن يقوى عليها، وإما أن تهشمه!!

إن المحتوى العاطفي.. هو الآن لا أكثر من تلفت متوتر.. محكوم بالتغييرات..

إن الأبعاد الثقافية.. لا تنفصل عن ذلك المحتوى الوجداني.. لأنها تستنهض رؤية جيل بكامله.. مشروخ ومصطدم دائما!

وكلنا ينتمي إلى هذا الجيل الباحث عن إدراكه بكل الوسائل والتصور أيضا!!

وبعد كل ذلك..

إنني أدجن عاطفتي لئلا تجمح..

إنني أعاني من إدراكي ووعيي، وأتكسر فوق أرصفة الأسئلة العميقة التي لا تلد الإجابات المنتظرة!!

إنني جيل يختبيء في غبار الحروب، ويحترق بلهب لعبة القوى العالمية.

إنني شاعر وسمسار.. أنادي على حقوقي الإنسانية من داخل محتوى الوجداني، وأتهدم!!

لقد بات العشق.. فجائية التصور..

تلاه: إن الأنثى التي تعشقها.. إما متشائمة منك، وإما متفائلة بنفسها، والحدث الذي تنتظره.. إما وعي متصادم، وإما شجن مكتف غامر!!

وأنت لا تعشق لترى محتواك الوجداني، وإنما لتفرقه!!

إنني إنسان هذا العصر: أتيجس، وأتهجر.. وتشربني نفسي!!

■


مباشرة إلى حلب